القسم السادس

فى نوادر الأمين والمأمون

الأمين مع جعفر بن موسى

حكى أن جعفر بن موسى الهادى كانت لهُ جارية عوادة اسمها البدر الكبير، ولم يكن فى زمانها أحسن منها وجهًا ولا أعدل قدًا ولا ألطف معنًى ولا أعرف بصناعة الغناء وضرب الأوتار، وكانت فى غاية الجمال، ونهاية الظرف والكمال، فسمع بخبرها محمد الأمين بن زبيدة والتمس من جعفر أن يبيعها لهُ، فقال لهُ جعفر أنت تعلم أنهُ لا يليق بمثلى بيع الجوارى والمساومة على السرارى، ولولا أنها تربية دارى لأرسلتها هديةً إليك ولم أبخل بها عليك، ثم إن محمدًا الأمين بن زبيدة توجه يومًا لقصد الطرب إلى دار جعفر فأحضر لهُ ما يحسن حضوره بين الأحباب وأمر جاريتهُ البدر الكبير أن تغنى لهُ وتطربهُ، فأصلحت الآلات وغنت بأطيب النغمات، فأخذ محمد الأمين بن زبيدة فى الشراب والطرب وأمر السقائين أن يكثروا الشراب على جعفر حتى يسكروه، ثم أخذ الجارية معهُ وانصرف إلى داره.

فلما أصبح الصباح أمر باستدعاء جعفر، فلما حضر قدم بين يديهِ الشراب وأمر الجارية أن تغنى لهُ من داخل الستارة، فسمع جعفر صوتها فعرفها فاغتاظ لذلك ولكنهُ لم يظهر غيظًا لشرف نفسهِ وعلو همتهِ ولم يبد تغيرًا فى منادمته، فلما انقضى مجلس الشراب أمر محمد الأمين بن زبيدة بعض أتباعهِ أن يملأ الزورق الذى ركب فيهِ جعفر إليهِ من الدراهم والدنانير وأصناف الجواهر واليواقيت والثياب الفاخرة والأموال الباهرة، ففعل ما أمر بهِ حتى إنه وضع فى الزورق ألف بدرة وألف درة قيمة الدرة عشرون ألف درهم، ولم يزل يضع فيهِ أصناف التحف حتى استغاث الملاحون وقالوا ما يقدر الزورق أن يحمل شيئًا آخر وأمر بحملهِ إلى دار جعفر.

أبو النواس والأمين

قال أبو النواس يمدح الأمين ويذكر فضل البرامكة:

يا دار مـا صنعـت بك الأيامُ ... لم يبق فيـك بشـارةٌ تمتـامُ
عدم الزمـان على الذين عهـدتهم ... بك قاطنيـن وللزمـــان عرام
أيام لا أخشى لزينـب منـزلاً ... إلاَّ مخالســـةً علىَّ لمـــام
ولقد نهزت مع الرواةِ بدارهم ... وأسمت سرح اللهـو حيث أساموا
وبلغـت مـا بلغ امرؤٌ بشبابهِ ... فـإذا غضـــارة كـل ذاك أثـام
وإذا المطىُّ بنا بلغـن محمـــداً ... فظهورهنَّ على الرجـال حرام
قرَّبتنا من خير من وطئ الثرى ... فلهـا علينـا حرمـةٌ وذمـــام
رُفع الحجـابُ لنا فبـانَ لناظرٍ ... قمرٌ تقطـعُ دونـهُ الأوهـــام
ملك أغـر إذا نظـرت بوجهـهِ ... لم يروِك التبجيـل والإعظـام

* * *

أبو النواس والأمين وسليمان بن المنصور

حصلت عداوة بين أبى النواس وسليمان بن المنصور فأمر الأمين بحبس أبى النواس فلما طال حبسهُ كتب إليهِ بهذه الأبيات:

تذكر أميـن الله والعهـــد يذكـرُ
مقـالى وإنشـاديك والناس حضَّـرُ
ونثرى عليـك الدرّ يا درَّ هـاشمٍ
فيـا من رأى درّاً على الدرّ ينثر
أبوك الذى لم تملك الأرض مثله
وعمـك مـوسى عـــدلهُ المتخيـر
ومن مثل منصور بن منصـور هـــاشم
ومنصـــور قحطـانٍ إذا عد مفخر

وجدك مهدى الهدى وشقيقهُ
أبو أمك الأدنى أبو الفضل جعفر
فمن ذا الذى يرمى بسهميك فى العلا
وعبد مناف والداك وحمير
تحسنتِ الدنيا بحسن خليفة
وهو الصبح إلاَّ أنهُ الدهر مسفر
يشبُّ إليهِ الجودُ من وجناتهِ
وينظر من أعطافهِ حين ينظر
مضت لى شهورٌ مذ حبست ثلاثة
كأنى قد أذنبت ما ليس يغفر
فإن أك لم أذنب ففيمَ عقوبتى
وإن كنت ذا ذنب فعفوك أكبر

فلما قرأ محمد الأبيات قال: أخرجوه وأجزوه ولو غضب أولاد المنصور كلهم

* * *

النضر والمأمون

قال النضر: دخلت ليلةً على المأمون للمسامرة بمرو وعلىَّ قميصٌ مرقوع، فقال يا نضر ما هذا القشف، قلت يا أمير المؤمنين أنا رجل كبير ضعيف وحرّ مرو شديد أتبدَّلُ بهذه الثياب الخليقة، قال لا ولكنهُ تنسك، ثم تجاوبا فى الحديث فقال المأمون: حدثنى هشيمٌ عن النبى ﷺ قال: «إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها كان فيها سداد عن عون»، قلت صدق فوك عن هشيم يا أمير المؤمنين حدثنى عوف بن أبى جميلة الأعرابى عن النبى ﷺ قال «إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها كان فيها سِداد عن عون»، وكان المأمون متكئًا فانتصب وقال كيف قلت يا نضر سِداد بكسر السين، فقلت يا أمير المؤمنين السداد بفتح السين هنا لحنٌ، قال أوتلحننى يا نضر قلت لا يا أمير

المؤمنين ولكن لحن هشيم وكان لحانًا فتبع أمير المؤمنين لفظهُ وقد تتبع الفقهاءُ، فقال ما الفرق بينهما، قلت السداد القصد فى الدين والسبيل والسداد البلغة وكل شيءٍ سددت بهِ شيئًا هو سداد، قال أوتعرف العرب هذا، قلت نعم هذا العربى يقول وهو من ولد عثمان بن عفان:

أضاعونى وأى فتًى أضاعوا ليوم كريهةٍ وسداد ثغر

فأطرق المأمون مليًا ثم قال قبح الله من لا أدب لهُ، ثم قال: أنشدنى يا نضر أخلب بيتٍ قالهُ العرب، فقلت قول ابن بيض فى الحكم بن مروان:

تقول لىَ والعيون هاجعة أقم علينا يومًا فلم أقمِ
أى الوجوه انتجعت قلتُ لها وأىُّ وجهٍ إلا إلى الحكمِ
متى يقل حاجبًا يرادفهُ هذا ابن بيض بالباب يبتسم
قد كنت أسلمت فيك مقتبلاً وها أنا ذا داخل فأعطنى سلمى

فقال المأمون: لله درّك، فكأنما فتح لك قلبى، أنشدنى ألطف بيتٍ للعرب، قلت قول ابن أبى عروبة المدينى:

إنى وإن كان ابن عمى غائبًا لمزاحمٌ من خلفهِ وورائهِ
ومعيده نصرى ولو كان امرءًا متزحزحًا فى أمره وسمائهِ
وأكون والى أمره فأصونهُ حتى يحق علىَّ وقت أدائهِ
وإذا الحوادث أحجمت بسوائهم قربت صحيحتنا إلى جربائهِ
وإذا دعى باسمى لأركب مركبًا صعبًا ركبت له على سلمائهِ
وإذا ارتدى ثوبًا كريمًا لم أقل يا ليت أن علىَّ فضل ردائهِ

فقال: أحسنت يا نضر، أنشدنى أقنع بيت قالتهُ العرب فأنشدتهُ:

إنى امرؤٌ لم أزل وذاك من الـ ـله أديبًا أعلم الأدبا
أقسم بالله ما اطمئنت بى الـ ـدار وإن كنت نازحًا طربا
لا أجتوى حلمة الصديق ولا أبغى لنفسى شيئًا إذا ذهبا
أطلب ما يطلب الكريم من الـ ـرزق بنفسى وأحمل الظلبا
وأجلب البرَّة الصفى ولا أجهد أخلاف غيرها طلبا
إنى رأيت الفتى الكريم إذا رغبتهُ فى صنيعهِ رغبا

والعبد لا يطلب العُلاءَ ولا يعطيك شيئًا إلاَّ إذا وهبا
مثل الحمار الموقع السوء لا يحسن شيئًا إلاَّ إذا ضربا
ولم أجد عروة الخلائق إلـ ـلا الدين لما اختبرت والحسدا
لم يرزق الخافض المقيم ولا شدَّ بعنس رحلاً ولا قتبا
ويحرم الرزق ذو المطية والر راجل من لا يزال مغتربا

قال: أحسنت يا نضر فعندك ضدها، قلت: نعم أحسن منها، قال: هات فأنشدتهُ:

يد المعروف غنم حيث كانت تحملها كفور أو شكور

قال: أحسنت يا نضر، ما تملك، قلت: أريضة تمر وأنصابها، قال: أوَلا نزيدك مع ذلك مالاً؟ فقلت: إنى إليه لمحتاج، فأخذ قرطاسًا فكتب ولم أدر ما يكتب، ثم قال: كيف تقول من التراب إذا أمرت أن يترب؟ قلت: (أتربه)، قال من الطين؟ قلت: (طنه)، قال: فهو ماذا؟ قلت مترب ومطين، فقال هذا أحسن من الأولى ثم قال للغلام أتربهُ وطنه (أى هبهُ أرضًا وطينًا)، ثم قام وصلى بنا العشاء فلما فرغ قال لخادمه: تسير معهُ إلى الفضل بن سهل، فلما وصلنا إليه وقرأ الورقة قال: يا نضر إن أمير المؤمنين قد أمر لك بخمسين ألف درهم فما كان السبب، فأفدتهُ ولم أكذب، فقال: ولحنت أمير المؤمنين، قلت: لا ولكن لحن هشيم وكان لحانًا فتبع أمير المؤمنين لفظتهُ وقد تتبع الفقهاءُ، فأمر لى الفضل من عنده بثلاثين ألف درهم أخرى فقبضت ثمانين ألفًا بكلمة استفادها.

* * *

المأمون وابن الأعرابى

قال المأمون لابن الأعرابى أخبرنى عن أحسن ما قيل فى الشراب، فقال يا أمير المؤمنين قولهُ:

تريك القذى من دونها وهى دونهُ إذا ذاقها من ذاقها يتمطق

قال: أشعر منهُ الذى يقول يعنى أبا نواس:

فتمشت فى مفاصلهم كتمشى البرء فى السقم
فعلت فى البيت إذ مزجت مثل فعل الصبح فى الظلم
فاهتدى سارى الظلام بها كاهتداء السفر بالعلم

فقلت فائدة يا أمير المؤمنين، فقال أخبرنى عن قول هند بنت عتبة:

نحن بنات طارق نمشى على النمارق

من طارق هذا، فنظرت فى نسبها فلم أجده، فقلت: يا أمير المؤمنين لا أعرف طارقًا فى نسبها، فقال: إنما أرادت النجم فانتسبت إليه بحسنها من قوله تعالى ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ [الطارق:١] فقلت فائدتان يا أمير المؤمنين، فقال أنا لؤلؤ هذا الأمر وابن لؤلؤة ثم رمى إلىَّ بعنبرةٍ كان يقلبها فى يده فبعتها بخمسة آلاف درهم.

* * *

المأمون ومحمد بن الجهم

قال محمد بن الجهم: دعانى المأمون فقال: أنشدنى بيت مدح نادر فأنشدتهُ:

يجودُ بالنفس إن ضنَّ الجواد بها والجود بالنفس أقصى غاية الجود

فقال: قد وليتك همذان، فأنشدنى بيت هجاء نادر فأنشدتهُ:

قبحت مناظره فحين خبرتهُ حسنت مناظره بقبح المخبر

قال: قد وليتك الدينور، فأنشدنى بيت مرثية نادراً فأنشدتهُ:

أرادوا ليضفوا قبره عن عدوه فطيب تراب القبر دلَّ على القبر

فقال: قد وليتك نهاوند فانشدنى بيت غزل نادر فأنشدتهُ:

حبٌّ مجدٌّ وحبيبٌ يلعبُ والقلب ما بينهما معذَّب

* * *

تهنئة العباس للمأمون

ولما ولد جعفر بن المأمون هنئوه بصنوف التهانى وكان فيمن دخل العباس ابن الأحنف فمثل قائمًا بين يديه ثم أنشأ يقول:

مدَّ لك الله الحياة مدًّا حتى ترا ابنك هذا جدًّا
ثم يفدًّا مثلما تفدًّا كأنهُ أنت إذا تبدًّا
أشبهُ منك قامةً وقدًّا مؤزَّرًا بمجده مردًّا

فأمر لهُ بعشرة آلاف درهم

* * *

كرم المأمون

قال القاضى يحيى بن أكثم: وقد رآه وقع فى يوم واحد بثلاثمائة ألف دينار وعرض عليه من القصص ما يزيد عن الحد فوقع فى الجميع ولم يضجر، فقلت يا أمير المؤمنين:

كأنك فى الكتاب وجدت لاءً محرَّمة عليك فلا تحلُّ
فما تدرى إذا أعطيت مالاً أيكثر من عطائك أم يقلُّ

فقال لهُ: يا قاضى إنما تطلب الدنيا لتملك فإذا ملكت فلتَهِبْ.

* * *